المسيح عبد الرّبّ
في إنجيل متى

الأب نجيب ابراهيم الفرنسيسكاني

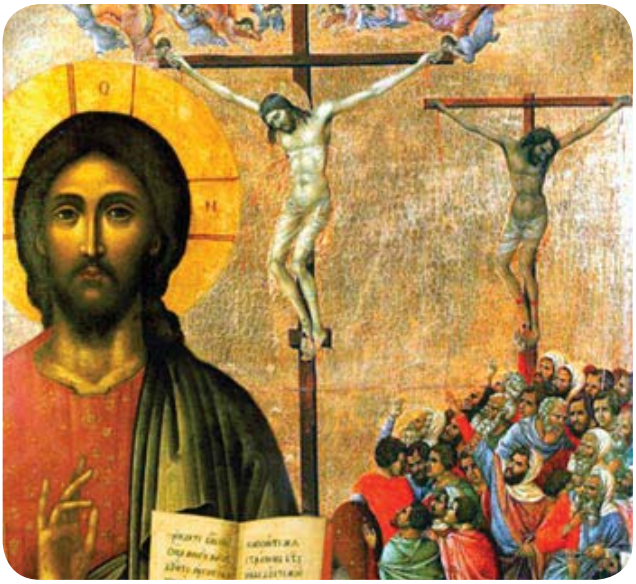

يرتكز اسلوب متى على صورة يسوع المحقّق والمتمّم لمواعيد العهد القديم ونبوءاته. ولا يخرج عن هذا المنهج في وصفه لآلام المسيح الخلاصية. يكتب متى إنجيله بعد تقليد غير قصير للعهد الجديد يرجع بكثافة إلى شخصية غامضة من العهد القديم، شخصية "عبد الرّبّ" لفهم آلام المسيح على ضوء الإيمان والتبشير بمفاعيله الخلاصية.

تقرأ الكنيسة أناشيد عبد الرب في الأسبوع المقدّس، أسبوع الآلام، لتسير بذلك حسب التقليد الذي يرجع إلى العهد الجديد، إلى الكنيسة الأولى، لا بل إلى يسوع نفسه.

نجد أناشيد "عبد الرب" في سفر أشعيا، في القسم الثاني الذي يدعوه أهل الاختصاص "أشعيا الثاني".

النشيد الأول: أشعيا ٤٢: ١ – ٧

النشيد الثاني: أشعيا ٤٩: ١ – ٩

النشيد الثالث: أشعيا ٥٠: ٤ – ١١

النشيد الرابع: أشعيا ٥٢: ١٣ – ٥٣: ١٢

يذكر الإنجيلي متى مرتين هذه الأناشيد ويستشهد بها عدة مرات بشكل تلميحات، خاصة في رواية الآلام، لتساهم في رسم الصورة المميّزة ليسوع في إنجيله.

أخذ أسقامنا وحمل أمراضنا (متى ٨ : ١٦ – ١٧)

بهذه الآية من النشيد الرابع لعبد الرب (أشعيا ٥٣ : ٤) يختم متى رواية ثلاث عجائب قام بها يسوع بعد الانتهاء من عظته الكبرى على الجبل: إبراء الأبرص، شفاء خادم قائد المائة، شفاء حماة بطرس (متى ٨ : ١ – ١٥). ينهي متى هذا القسم بشكل تصاعدي قائلاً: «ولَمَّا كانَ المساء، أَتَوه بكثيرٍ مِنَ المَمْسُوسين، فَطَرَدَ الأَرواحَ بكَلِمَةٍ منه، وشَفى جَميعَ المَرْضى، لِيَتِمَّ ما قيلَ على لِسانِ النَّبِيِّ أَشَعْيا: "هوَ الَّذي أَخذَ أَسقامَنا وحَمَلَ أَمراضَنا"» (متى ٨ : ١٦ – ١٧).

يفسّر الإنجيليّ عجائب يسوع من خلال استشهاد مأخوذ من النشيد الرابع لعبد الرّبّ (أشعيا ٥٣ : ٤). يرد اسم عبد الرّبّ في بداية هذا النشيد (أشعيا ٥٢ : ١٣)، الذي يصف آلام رجل مزدرى ومتروك من النّاس، لا يجابه جلاّديه إلا بالصمت. يعطي النبيّ معنى هذه الآلام قائلاً: «لقد حمل هو آلامنا واحتمل أوجاعنا» (أشعيا ٥٣ : ٤). لا يتكلّم متى عن الآلام والأوجاع، بل عن الأمراض والأسقام، ذلك أنّه يقصد تسلّيط الضوء على عجائب يسوع ومعناها الخلاصيّ. على أنّ دور يسوع يشبه دور عبد الرّبّ في تحمّل شقاء الشعب. يحمل فرد مشقّات الجماعة.

هكذا يبدأ الإنجيليّ متى بإنشاء لاهوت الفداء حتى ولو لم يكن هناك من تعابير صريحة عن آلام وموت يسوع ومعنى الذبيحة. فالتنويه بدور عبد الرب يظهر مشاركة يسوع لآلام البشر ويعدّ لدوره كذبيحة فداء من أجلهم.

لن يخاصم ولن يصيح (متى ١٢ : ١٥ – ٢١)

لا يقتصر الرجوع إلى أناشيد عبد الرّبّ على فهم معنى آلام المسيح وحسب، بل يمنح الإنجيليّ متى الفرصة لوصف نهج يسوع في الرسالة. يرد الاستشهاد الثاني لأناشيد عبد الرب بعد حادثتين في يوم السبت، حادثة السنبل، لمّا جاع تلاميذ يسوع فأخذوا يقلعون السّنبل ويأكلون، وأعجوبة شفاء رجل يده شلاّء. يعقّب الإنجيليّ بعد رواية الخبرين قائلاً: «فخرج الفرّيسيّون يتآمرون عليه ليهلكوه» (متى ١٢ : ١ – ١٤).

كيف تصرّف يسوع أمام هذا الرفض والتآمر عليه؟

لم يواجه يسوع بالعنف الذين ضغطوا عليه، بل انصرف من هناك وشفى كثيراً من الناس الذين تبعوه ونهاهم عن كشف أمره. بوحي من الروح القدس، رأى الإنجيليّ متى في نهج يسوع تحقيقاً لنبوءات العهد القديم التي تخصّ "عبد الرّبّ"، فيقول:

«فعَلِمَ يسوع فَانصرَفَ من هناك، وتَبِعَه خَلْقٌ كثير فشَفاهُم جَميعاً ونَهاهم عَن كَشْفِ أَمْرِه لِيَتِمَّ ما قيلَ على لِسانِ النَّبِيِّ أَشَعْيا: "هُوَذا عَبْدِيَ الَّذي اختَرتُه حَبيبِيَ الَّذي عَنهُ رَضيت. سَأَجعَلُ

رُوحي عليه فيُبَشِّرُ الأُمَمَ بالحَقّ. لن يُخاصِمَ ولن يَصيح ولَن يَسمَعَ أَحدٌ صوتَهُ في السَّاحات. القَصَبةُ المَرضوضَةُ لن يَكسِرَها والفَتيلةُ المُدَخِّنةُ لن يُطفِئَها حتى يَسيرَ بالحَقِّ إلى النَّصْر. وفي اسمه تَجعَلُ الأُمَمُ رجاءَها" » (متى ١٢ : ١٥ – ٢١).

العشاء الأخير ليسوع مع تلاميذه
للفنان دوتشو

نحن أمام الاستشهاد الأطول لنصّ من العهد القديم في إنجيل متى، وهو كسابقه يرد بأسلوب تحقيق النبوءات، إذ يقول متى: «ليتمّ ما قيل على لسان النبيّ». والنص مأخوذ من النشيد الأول لعبد الرّب: (أشعيا ٤٢ : ١ – ٤).

يريد متى فهم وتفسير نهج يسوع في الرسالة، هذا النهج الذي تبيّن خطوطه في ردة فعل يسوع على تآمر خصومه عليه لأنّه أعطى المعنى الحقيقيّ لراحة يوم السّبت وللشريعة عامّة، إذ أوضح أنّ «ابن الإنسان سيّد السبت» وهو «أعظم من الهيكل» وأنّ ما يريده الله هو «الرحمة لا الذبيحة». لم يواجه يسوع خصومه بالعنف، بل انصرف من هناك وتابع رسالته في مكان آخر، بانتظار الموعد المحدّد لتسليم ذاته وتتميم عمل الخلاص. "انصرف" من هناك يقول متى، فيعطي باستعماله المتكرّر والمميّز لهذا الفعل صفة خاصّة برسالة يسوع، تلقي نبوءة أشعيا عليها الضوء، لتظهر كبعد أساسيّ لنهج يسوع، نهج التواضع والوداعة والرحمة. يرد هذا الفعل عشر مرات في إنجيل متى، بينما لا يرد في مرقس ويوحنا سوى مرة واحدة. يستعمل متى هذا الفعل ليصف رحيل العائلة المقدّسة إلى مصر ورجوعها إلى الأرض المقدّسة (متى ٢ : ١٢ و ١٣ و١٤ و٢٢) وللدلالة على انصراف يسوع أمام الخطر الذي يهدّد حياته، كما نتبيّنه من النصّ الذي ورد أعلاه.

بعد تجربة يسوع، بلغه خبر اعتقال يوحنّا، فلجأ إلى الجليل (٤ : ١٢). وبعد خبر استشهاد يوحنّا، يقول متى: «فلمّا سمع يسوع، انصرف من هناك في سفينة إلى مكان قفر يعتزل فيه» (متى ١٤ : ١٣؛ راجع ١٥ : ٢١).

ينصرف يسوع من المجمع حيث شفى الرجل الذي كانت يده شلاّء، وكان ذلك يوم السّبت.

لم يمنع يسوع الجموع أن تتبعه، فشفى منهم خلقاً كثيراً. ولكنّه «نهاهم عن كشف أمره»، يقول الإنجيليّ متى.

باستطاعتنا الآن قراءة مجمل الصفات التي يتّصف بها نهج يسوع في الرسالة: يسوع لا يريد الدخول في المواجهة مع خصومه قبل الأوان، فلا يقابلهم بالعنف، بل يتنّقل من مكان إلى آخر ليرى حاجات النّاس ويشفي المرضى منهم. مع ذلك لا يريد يسوع أن يسيء النّاس فهم رسالته ومعرفة سرّ شخصه، فيتعامل معهم بحذر آخذاً في الاعتبار عقليّتهم المسيحانيّة ذات السّمات اليهوديّة المعروفة. تواضع ووداعة ومعرفة عميقة للاشخاص والمجتمعات وقصد واضح بشفاء النّاس من أمراضهم ومساعدتهم لإحلال ملكوت الله، هذا هو اسلوب يسوع في الرسالة الذي أراد الإنجيليّ متى الكشف عن مضمونه وتفسيره بواسطة الاستشهاد بنصّ من أشعيا النبيّ: يسوع هو عبد الرب.

هنا فقط يُعطى لقب عبد الرب ليسوع بشكل واضح في إنجيل متى. ولكن الكلمة اليونانية "پايس" المستعملة هنا تعني عبداً وابناً، فتأتي كلمات النبيّ أشعيا حسب استشهاد متى لتعبّر عن الطاعة والبنوّة. يبشّر عبد الرّب الأمم ويكون شديد الانتباه لحاجات الضعفاء، «فالقصبة المرضوضة لن يكسرها والفتيلة المدخّنة لن يطفئها».

تذكّر كلمات نشيد عبد الرّبّ حسب استشهاد متى بصوت الآب في معموديّة يسوع، حتى أنّه باستطاعتنا قراءة النصّين بشكل إزائيّ: «هذا هو ابني الحبيب الّذي عنه رضيت» (متى ٣: ١٧). "ابني الحبيب الذي عنه رضيت" هو ايضاً "عبدي الذي اخترته، حبيبي الّذي عنه رضيت". عبد الرّب هو الابن الذي كشف عنه الصوت السّماويّ في المعمودية. عندما قصد يسوع يوحنّا ليعتمد عن يده، واجهه هذا الأخير بالرفض لأنّه هو الذي يحتاج للاعتماد عن يد يسوع. ولكنّ يسوع أقنع يوحنّا فاعتمد القويّ عن يد الضعيف، وكان ذلك عمل برّ يرضي الله (متى ٣: ١٣ – ١٥)، وصارت المعموديّة تنازلاً في عمق الإنسانية ليكون يسوع الابن والعبد الرزين اللطيف والعطوف.

يسلّط النشيد الأول لعبد الرّبّ الضوء على مزايا اللطف التي يتميّز بها الله في تحقيق الخلاص بين الأمم. ويجعل متى من هذه المزايا أساساً لرسالة يسوع، التي يكشف عنها الله في معموديّته وكأنّي بها افتتاحية الرسالة. أمّا الاستشهاد الواضح في الفصل ١٢ بنشيد عبد الرب هو بمثابة إعلان عن تحقيق هذا البرنامج يوماً بعد يوم، خاصة عندما كان باستطاعة يسوع إظهار القوة في معاملة خصومه. برنامج يسوع الظاهر في معموديته يتحقّق في نهج الرسالة: تواضع وتنازل وابتعاد وانحناء على الاجساد المريضة والقلوب المنكسرة وصمت. يسوع هو حقاً عبد الرّبّ.

آلام عبد الرّبّ

نجد أناشيد عبد الرب بنوع خاص في رواية آلام المسيح من خلال شواهد مباشرة وتلميحات، إذ يبيّن متى، ومعه مختلف أسفار العهد الجديد، كيف أنّ يسوع يحقّق رسالة عبد الربّ بواسطة آلامه وموته. يرجع الإنجيل إلى النشيد الثالث والرابع، حيث تظهر ملامح آلام عبد الرّبّ.

يصف الكاتب الملهم آلام عبد الرّبّ قائلاً: «أسلمتُ ظهري للضّاربين وخدّي للناتفين، ولم أستر وجهي عن الإهانات والبُصاق» (أشعيا ٥٠ : ٦).

يرجع متى إلى هذه التعابير ليُخبر عن آلام المسيح. بعد محاكمة يسوع أمام قيافا والمجلس والحكم عليه بالموت يصف متى كيف عامل الحاضرون يسوع: «فبَصَقوا في وَجهه ولَكَموه، ومِنهُم مَن لَطَمَه» (متى ٢٦ : ٦٧). كذلك الأمر عندما راح الجنود يسخرون منه: «فمَضى جُنودُ الحاكم بيَسوعَ إلى دار الحاكم وجَمَعوا علَيه الكَتيبَةَ كُلَّها، فجَرَّدوهُ من ثيابه وجَعَلوا علَيه رداءً قِرمِزياً، وضَفَروا إكليلاً من شَوكٍ ووَضَعوه على رأسه، وجَعلوا في يَمينه قَصَبَة، ثُمَّ جَثَوا أَمامَه وسخِروا منهُ فقالوا: "السَّلامُ عليكَ يا مَلكَ اليَهود". وبَصَقوا علَيه وأَخَذوا القَصَبَةَ وجَعَلوا يَضربونَه بها على رأسه. وبعدَ ما سَخِروا منه نَزَعوا عَنه الرِّداء، وأَلبَسوه ثيابَه وساقوه لِيُصلَب» (متى ٢٧ : ٢٧ - ٣١).

ترد تلميحات عدة للنشيد الرابع في سيرة الآلام: يشبه صمت يسوع أمام بيلاطس (متى ٢٧ : ١٤) صمت عبد الرّبّ في أشعيا ٥٣ : ٧: «عُومِلَ بقَسوَةٍ فتَواضَع ولم يَفتَحْ فاهُ كحَمَلٍ سيقَ إلى الذَّبح، كنَعجَةٍ صامِتَةٍ أَمامَ الَّذينَ يَجُزُّونَها ولم يَفتَحْ فاهُ».

يخبر متى كيف راح اللصّان اللذان صُلبا معه يعيّرانه مثل الكتبة والشيوخ ولا يذكر توبة لصّ اليمين كما في لوقا، فيقارب بذلك ما جرى لعبد الرّبّ الّذي «أَسلَمَ نَفْسَه لِلمَوت وأُحصِيَ مع العُصاة وهو حَمَلَ خَطايا الكَثيرين وشَفَعَ في مَعاصيهم» (أشعيا ٥٣ : ١٢).

لا نجد فقط تلميحات لأناشيد عبد الرّبّ، بل يبدو أنّ هذه النبوءات هي مفتاح لفهم معنى آلام المسيح حسب رواية الإنجيليّ متى. هذا ما نتبيّنه في معاني الفداء من أجل خطايا البشر. وكان التقليد اليهوديّ قد أظهر هذا المعنى في الترجمة اليونانية التي تتكلّم عن الخطايا بدل الأمراض والعاهات التي حملها عبد الرّبّ (أشعيا ٥٣ : ٤). ليصبح موت عبد الرّبّ بمثابة ذبيحة من أجل الخطايا. هذا هو التقليد المسيحيّ الذي يتجلّى في كتابات بولس الرسول وفي الرسالة إلى العبرانيين، ومتى هو أيضاً أحد شهود هذا التقليد.

في العشاء الأخير، أخذ يسوع الكأس شكر وقال لتلاميذه: «اشرَبوا مِنها كُلُّكم فهذا هُوَ دَمي، دَمُ العَهد يُراقُ مِن أَجْلِ جَماعةِ النَّاس لِغُفرانِ الخَطايا» (متى ٢٦ : ٢٨). لدينا أربع روايات

لتأسيس الإفخارستيا في العهد الجديد: متى ٢٦: ٢٦ - ٣٠؛ مرقس ١٤: ٢٢ - ٢٥؛ لوقا ٢٢: ١٩ - ٢٠ و١ قورنتس ١١: ٢٣ - ٢٥. ينفرد متى بين هذه الروايات الأربع بذكر الكلمات الأخيرة التي قالها يسوع على الكأس: «لغفران الخطايا». موت يسوع بالنسبة لمتى هو ذبيحة من أجل غفران الخطايا (راجع لاويين ٤).

عندما يتكلّم متى عن معموديّة يوحنّا يتحاشى وصفها «بِمَعموديَّةِ تَوبَةٍ لِغُفرانِ الخَطايا» مثل مرقس (١: ٤) ولوقا (٣: ٣) ويكتفي بالقول: «في تلكَ الأَيَّام، ظهَرَ يُوحنَّا المَعمَدان يُنادي في بَرِّيَّةِ اليَهودِيَّة فيقول: "توبوا، قدِ اقتَرَبَ مَلكوتُ السَّموات"» (متى ٣: ١ - ٢). بالنسبة لمتى ليس لمعموديّة يوحنّا هذه الصفة، لأنّ غفران الخطايا لا يتمّ إلاّ بواسطة ذبيحة الصليب، التي يحقّقها المسيح عبد الرّبّ الذي يحمل خطايا العالم.

«لماذا تَطْلُبْنَ الْحَيّ بين الأموات»
للفنان دوتشو

الخاتمة

يسوع الوديع والمتواضع القلب (متى ١١: ٢٩) هو عبد الرّبّ، الابن الحبيب، الّذي عمل ويعمل في الكنيسة من أجل خلاص كلّ البشر. لا يخاصم ولا يصيح، بل يصبر بالمحبّة على ضعف البشر، "فلا يكسر القصبة المرضوضة ولا يطفئ الفتيلة المدخّنة". هكذا خلّصنا يسوع ولم يلجأ إلى القوّة ولا إلى العنف، بل تحمّله بحبّ لخلاصنا.

رجع يسوع والكنيسة الأولى إلى أناشيد عبد الرّبّ لإظهار نهج يسوع في الرسالة وخاصة لفهم معنى موته الخلاصيّ. سارت الكنيسة في تقليد العهد الجديد فحافظت على قراءة هذه النصوص من سفر أشعيا الثاني خلال الأسبوع المقدّس.

في سياق كلامه عن معنى موت يسوع، يقول "رومانو پنّا": «إذا لم يكن لموته معنى بالنسبة لي، لن يكون لحياته أي معنى لحياتي».

مات يسوع على الصليب من أجلنا ومن أجل كلّ البشر. مات حقاً على الصليب ليخلّصنا، لأنّه «لم يأتِ لِيُخدَم، بَل لِيَخدُمَ ويَفدِيَ بِنَفسِه جَماعَةَ النَّاس» (متى ٢٠: ٢٨).